سلسلة المقالات

المنهجية

(٣٧)

يَقِيْنُ الاسْتِنْبَاطِ الشَّرْعِيِّ وَزَوَالُ الشَّكِّ وإِزَاحَةُ الغِلِّ

كتبه

الباحث الشرعيّ الدكتور عيد أبو السعود الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده، أمَّا بعد:

فقد قال عليّ بن محمد السَّيد الشريف الجُرْجَانيّ (ت ٨١٦ هـ) في «التعريفات» (ص ٢٢):

«الاستنباط لغة: استخراج الماء من العين، من قولهم: نبط الماء إذا خرج من منبعه، والاستنباط اصطلاحًا: استخراج المعاني من النّصوص بفرط الذّهن وقوة القريحة» اهـ.

وقال ابن منظور في: «لسان العرب» (١٢/ ٥٧):

«وقريحة الإنسان: طبيعته التي جُبِلَ عليها، وجمعها قرائح؛ لأنّها أوّل خِلْقتِهِ، وقيل: قريحة كل شيْء أوّله، والقريحةُ والقُرْحُ: أول ما يخرج من البئر حين تُحْفَرُ» اهـ.

وقال ابن الأثير في: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٤/ ٣٢):

«الماء القَرَاح: بالفتح: وهو الماء الذي لم يُخالطه شيء يُطيَّبُ به، كالعسل والتمر والزبيب» اهـ. **قلت**: يعني هو في نفسه طيّب من غير شيء آخر يطيّبه وعليه، فالمراد كون القريحة الصحيحة طيبة المنشأ والمبتدأ مما يُكْسِبُها الفقه والفهم والوعي والإدراك والبصيرة السليمة، الموصلة إلىٰ جودة الاستنباط، فهذه صفة المجتهد المعتبر شرعًا المؤهل للفتوىٰ.

وقال الراغب الأصفهاني في: «المفردات في غريب القرآن» (ص ١٠٢):

«الجهل: علىٰ ثلاثة أضرب: الأول: وهو خُلوّ النّفس من العلم، هذا هو

الأصل، والثاني: اعتقاد الشيء علىٰ خلاف ما هو عليه، والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقّه أن يُفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا»

ثم قال (ص ٣٤٣):

«العلم إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذات الشيء، والثاني: الحكم علىٰ الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه، . . . ، والتعليم: تنبيه النفس لتصوّر المعاني، والتعلّم: تَنَبُّهُ النفس لتصور ذلك» اهـ. فكان العلم ضد الجهل.

وقال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (١/ ١٤):

«قال أبو عمر بن عبد البر: وأجمعوا أن العلم معرفة الحق بدليله» اهـ.

وقال الجُوْرجاني في: «التعريفات»(ص ١٣):

«الإحاطة: إدراك الشيْء بكماله ظاهرًا وباطنًا» اهـ. **قلت**: وهذه الإحاطة لا تكون إلا للَّه تعالىٰ حيث قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، أما إحاطة البشر فهي ناقصة بين الزيادة والنقصان علىٰ حسب الإلمام بأدلة الأحكام إيجابًا وسلبًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال ابن فارس في «مقاييس اللغة» (٤/ ٣٧٥-٣٧٦):

«غلّ - الغين واللام أصل صحيح يدل علىٰ تخلّل شيء وثبات شيء، كالشيء يُغْرَزُ، من ذلك قول العرب: غللْتُ الشيء في الشيء إذا أثبتّه فيه، والغُلّة والغليل: العطش، وقيل ذلك؛ لأنه كالشيء ينغلّ في الجوف بحرارة، يقال: بعير غلَّان؛ أي: ظمآن، والغلل: الماء الجاري بين الشّجر، ومن الباب: الغلول في الغُنْم، وهو أن يخفىٰ الشيء فلا يردَّ إلىٰ القَسْم، كأن صاحبه قد غلّهُ بين ثيابه.

ومن الباب: الغِلُّ وهو: الضِّغْن ينغلّ في الصدر» اهـ.

قلت: ويدخل في الغِلّ: الظلم، **قال الجرجاني (ص ١٢١):**

«الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وفي الشريعة: عبارة عن التعدّي عن الحق إلىٰ الباطل وهو الجَوْر، وقيل: الظلم هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد» اهـ.

● **ثم آخر هذه الألفاظ معنى الفقه:**

قال في: «التعريفات» (ص ١٤١-١٤٢):

«الفقه: هو في اللغة: عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه، وفي الاصطلاح الشرعيّ: هو العلم بالأحكام الشرعية المكتسب من أدلتها التفصيلية، وهو الإصابة والوقوف علىٰ المعنىٰ الخَفِيّ، الذي يتعلّق به الحكم، وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد، ويحتاج فيه إلىٰ النّظر والتأمّل» اهـ.

قلت: فهذه جملة من الألفاظ وبيان معانيها تمهيدًا وتوطئة للمراد من البحث، ثم أمّا بعد:

فقد روىٰ الترمذي في «سننه» (٢٦٥٦-٢٦٥٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود في «سننه» (٣٦٦٠)، وابن ماجه (٢٣٠-٣٠٥٦) والحاكم في «المستدرك» (٣٩٤-٣٩٥) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، قاعدة من قواعد أصحاب الروايات ولم يخرّجاه، وقال الذهبيّ في «التلخيص»: علىٰ شرطهما، وله أصل جاء من أوجه صحيحة، ورواه أحمد في «المسند» (٤١٥٧، ١٣٢٨٣، ٦٦٨٣، ١٦٦٩٩، ٢١٤٨٢) قال رسول اللَّه ﷺ: «**نضَّر اللَّه عبدًا-وفي رواية: امْرءًا- سمع منّا حديثًا، فبلّغه كما سمع، فرب مُبلّغ أوْعىٰ من سامع -وفي رواية: فرب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه، وربّ حامل فقه ليس بفقيه، ثلاث لا يُغِلَّ - وفي رواية: لا يَغِلّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل للَّه، وفي رواية لا يُغِلّ عليهم صدر مسلم، إخلاص العمل للَّه ﷻ، ومناصحة أئمة المسلمين وفي رواية: مناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، وفي رواية: ولزوم**

جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط مِن ورائهم».

قال المُناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٦/ ٣٧٤) حديث (٩٢٦٤-٩٢٦٣) وصححهما السيوطي: «نضّر اللَّه» من النضارة: الحسن والروْنق، «امرءًا»؛ أي: رجلًا -وهي بفتح الميم وكسرها وضمّها- «امرءًا» بزيادة همزة الوصل مع ضمّها ومع فتحتها، ومع كسرها في سائر الأحوال، خصّه اللَّه بالبهجة والسرور، أوْ حَسَّنَ وجهه عند الناس وحاله بينهم وأصله قوله تعالىٰ: ﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

قوله ﷺ: «سمع منّا شيئًا» من الأحاديث بما رُزق من العلم والمعرفة، والمراد بقوله: «شيئًا»: عموم الأقوال والأفعال الصادرة من المصطفىٰ ﷺ وأصحابه رضوان اللَّه عليهم أجمعين، بدليل صيغة «مِنَّا» بلفظ الجمع؛ ولهذا أوقع امرءًا موقع عبد، وهو أعم من العبد من معنىٰ الاستكانة والمضيّ لأمر اللَّه ورسوله بلا امتناع وعدم الاستنكاف والكبر، مع أداء ما سمع؛ أي: إلىٰ من هو أعلم منه؛ فإن حقيقة العبوديّة مُشعرة بذلك، «فبلّغه»؛ أي: أدّاه إلىٰ من يبلغه «كما سمعه»؛ أي: من غير زيادة ولا نقص، فمن زاد أوْ نقص فهو مُغيّر، فيكون الدّعاء مصروفًا عنه، قال الطيبيّ: كما سمعه، إمّا حال من فاعل بلّغه، وإمّا مفعول مطلق، وإمّا موصولة، أو مصدرية، قال التوربشتي: «وربّ» موضوعة للتقليل، فاستعيرت في الحديث للتكثير، «فربّ مبلغ» بفتح اللام، «أوعىٰ»؛ أي: أعظم تذكّرًا، قال المظهر: وعيَ يعي وعيًا: إذا حفظ كلامًا بقلبه ودام علىٰ حفظه ولم يَنْسَهُ، والوعي: إدامة الحفظ وعدم النسيان «من سامع» لما رُزق من جوْدة الفهم، وكمال المعرفة والعلم، وخص مبلغ سُنّته بالدعاء؛ لكونه سعىٰ في نضارة العلم وتجديد السّنة، فجوزيَ بما يليق بحاله، وفي الحديث وجوب تبليغ العلم، وهو الميثاق المأخوذ علىٰ العلماء، وأنّه يكون في آخر الزمان من له الفهم والعلم ما ليس لمن تقدّمه لكنّه قليل؛ بدلالة رُبّ، ذكره بعضهم، ومنعه ابن جماعة؛ بمنع

دلالته علىٰ المدّعي، فإن حامل السّنة يجوز أن يؤخذ عنه، وإن كان جاهلًا بمعناها فهو مأجور علىٰ نقلها وإن لم يفهمها، وإنّ اختصار الحديث لغير المتبحر ممنوع، وأنّ النقل بالمعني مدفوع إلّا علىٰ المتأهّل ففيه خلاف، ووجه المنع: أنه سدٌّ لطريق الاستنباط علىٰ مَنْ بعده مِمَّن هو أفقه منه.

قوله ﷺ: «**ورب حامل فقه ليس بفقيه**» بيّن به أنّ راوي الحديث ليس الفقه من شرْطه، إنّما شرطه الحفظ، أمّا الفهم والتدبّر فعلىٰ الفقيه، وهذا أقوىٰ دليل علىٰ ردّ قبول من شرط لقبول الرواية كون الرَّاوي فقيها عالمًا، وقسّم التحمّل إلىٰ شيئين: لأن حامل الحديث لا يخلو إما أن يكون فقيهًا أو غير فقيه، وإما أنْ يكون غيره أفقه منه أوْ لا، فانقسم بذلك إليهما وفي الحديث: أنّ أساس كل خير حسن الاستماع، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقد حقّق العارفون أن كلام اللَّه رسالة من اللَّه لعبيده ومخاطبة لهم، وهو البحر المشتمل علىٰ جواهر العلم، المتضمّن لظاهره وباطنه، ولهذا أقاموا بأدب سماعه وَرَعَوْه حق رعايته، وقد تجلَّىٰ لخلقه في كلامه «لو كانوا يعقلون»، وكذا كلام رسول اللَّه ﷺ مما يتعيّن حسن الاستماع؛ لأنه لا ينطق عن الهوىٰ» اهـ.

وقال السّنديّ في: «شرح سنن ابن ماجه» (١/ ١٥٢) حديث (٢٣٠):

«قوله ﷺ: «**قربّ حامل فقهٍ**» بمنزلة التعليل لما يُفهم من الحديث، أنّ التبليغ مطلوب، والمراد بحامل الفقه: حافظ الأدلة التي يُستنبط منها الفقه «**غير فقيه**»؛ أي: غير قادر علىٰ استنباط الفقه من تلك الأدلة «**إلىٰ من هو أفقه منه**»؛ أي: هو فقيه أيضًا، لكنّه يحمل هذا الفقه إلىٰ أفقه منه في الدرجة والمنزلة الفقهيّة؛ بأن كان الذي يسمع أفقه منه وأقدر علىٰ استنباطه واستخراجه للأحكام الشرعية. قوله: «**ثلاث**»؛ أي: ثلاث خصال مخصوصة بالإضافة، أو التوصيف، فصح وقوعها مبدأ عند الكل -من الخصال الثلاث-، قوله: «**لا يُغلّ**» بكسر العين وتشديد اللام، والياء تحتمل الضمّ والفتح، فعلىٰ الضم من أغلّ إذا خان، وعلىٰ

الفتح من غلّ إذا صار ذا حقد وعداوة، وقوله: «**عليهنّ**» في موضع الحال؛ أي: حال كونه كائنًا عليهنّ؛ أي: ما دام المؤمن علىٰ هذه الخصال الثلاث [لا يشمله الغلّ ولا يدخل قلبه]، وقوله: «**قلبُ امرئٍ**»؛ أي: لا يدخل في قلبه خيانة ولا حقد يمنعه من تبليغ العلم، فينبغي له الثبات علىٰ هذه الخصال حتىٰ لا يمنعه شيء من التبليغ، وبهذا ظهر مناسبة هذه الجملة بما قبلها، قوله: «**إخلاص العمل للَّه**»؛ أي: جعل العمل خالصًا للَّه لا لغيره من محبّته؛ أي: بلا عداوة «**والنّصح**»؛ أي: إرادة الخير ولو للأئمة، وفيه أن إرادة النّصح للأئمة يكفي في إرادته لكلّ أحد؛ لأنّ فساد الرعايا يتعدَّىٰ آثاره إليهم.

ويؤخذ من هذا: أن رئيس الأئمة النبيّ ﷺ فنُصحه مطلوب بهذا الحديث أوّلًا، ونصحه يتضمنُ النصح التام لأمّته ﷺ» اهـ.

قلت: وقال ابن الأثير في «النهاية» (٣/ ٣٤٢):

«قوله: «**ثلاث لا يُغلُ عليهن قلب مؤمن**» هو من الأغلال: الخيانة في كل شيء، ويُرْوىٰ «لا يَغِلُ» بفتح الياء، من الغل وهو الحقد والشحناء: أي لا يدخله حقد يُزيله عن الحق، والمعنىٰ: أنّ هذه الخلال الثلاث تُسْتصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدّغل والشر» اهـ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٢].

قال القرطبيّ في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ١٥٠):

«والنزع الاستخراج، والغل: الحقد الكامن في الصدور، وتطهير الأوضار من الصدور» اهـ.

وروىٰ البخاري في «صحيحه» (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) قال ﷺ: «**من يُرد اللَّه به خيرًا يفقّه في الدين**» وفي رواية صححها المنذري في «الترغيب والترهيب» (١٠٠) والسيوطي في «الجامع الصغير» (٩١٠٤) وصححه: «**من يُرد اللَّه به خيرًا**

يفقهه في الدين ويُلْهِمْهُ رُشْدَهُ».

قال المُناويّ في «فيض القدير» (٦/ ٣٢٠-٣٢١):

«قوله: «**به خيرًا**» بالتنكير في سياق الشرط فيعم؛ أي: من يرد اللَّه به جميع الخيرات أو خيرًا عظيمًا كثيرًا، فالتنوين للتعظيم، «**يفقهه في الدين**»؛ أي: يُفهّمه علم الشريعة بالفقه؛ لأنه علم مستنبط بالقوانين والأدلة والأقيسة والنظر بخلاف علم اللغة والنحو والصرف، ويفهمه أسرار أمر الشارع ونهيه بالنور الربّانيّ الذي أناخه في قلبه، كما يرشد إليه قول الحسن البصريّ: «إنّما الفقيه من فقه عن اللَّه أمره ونهيه»، ولا يكون ذلك إلّا لعامل بعلمه، فإن حقيقة الفقه في الدّين ما وقع في القلب، ثم ظهر علىٰ اللسان فأفاد العمل؛ فأورث الخشية، فالتّقوىٰ، وأمّا الذين يتدارسون أبوابًا من الفقه؛ ليعزّز به الواحد منهم نفسه فأجنبيّ عن هذه المرتبة العظمىٰ، والمراد بالفقه المذكور: العلم بمعرفة اللَّه وصفاته، فتعيّن أن المراد وهو علم الآخرة، وقد سمّىٰ اللَّه في كتابه طريق الآخرة فقهًا وحكمة وضياء ونورًا ورشدًا، من نحو الإخلاص والتوكل، وفقهت؛ أي: فهمت، فمفهوم الحديث: أنه من لم يتفقّه في الدين؛ أي: يتعلم قواعد الإسلام، لم يُرد اللَّه به خيرًا، وقوله: «**ويلهمه رشده**» وفيه شرف العلم وفضل العلماء، وأنّ التفقه في الدين علامة علىٰ حسن الخاتمة، ويَفهّمه علم الذات والصفات الناشئ عنه ملابسة كل خُلُق سَنِيّ، وتجنّب كل خلق دنيّ، فمن عرف سعه رحمته، أثمرت معرفته سعة الرجاء، ومن عرف شدة نقمته أثمرت معرفته شدّة الخوف، وأثمر خوفه الكف عن الذنوب، والبكاء والحزن، وحسن الانقياد، وإتقان العبادة، وإصلاح القلب وإخلاص العمل، والإذعان، ومن عرف إحاطة علمه لكل معلوم ورؤيته لكل مبصر أثمر ذلك العلم الحياء منه والمراقبة، ومن عرفه بالتفرّد بالضر والنفع لم يعتمد إلّا عليه سبحانه، ولم يُفوّض إلّا للَّه، ومن عرفه بالعظمة والجلال هابه وعامله بالذّلة والافتقار للغني الحميد، من عرف أن النّعم كلها منه

أحبّه، وأثمرت محبّته آثارها، فهذه بعض ثمرات المهتدي لفقه بعض الصفات للَّه تعالىٰ» اهـ.

قلت: وقد أورد السيوطي (٩١٠٥) رواية وحسنها قال ﷺ: «**من يرد اللَّهُ يهدِه يُفقّهْهُ**»، فكل ما قاله المُناوي يدور حول هذه الأحاديث الثلاثة في النقل السابق، وهو يُظهر الفرق بين الغلّ البغيض، والفقه في الدين، وما يتبعه من آثار الخير والصلاح علىٰ خلوص القلب للَّه وباللَّه وفي اللَّه، وإرادة إصلاح منظومة العلم الشرعيّ، والرغبة في التطهير الكلّي العام، قال تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، وتطهير الثياب، فيه أقوال: أن المراد بالثياب: ١- القلب. ٢- الجسم. ٣- النفس. ٤- الأهل. ٥- الخلق. ٦- الدين. ٧- الثياب الملبوسات علىٰ الظاهر، قاله القرطبيّ في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٩/ ٤٩).

- **الحقُّ اليقين سكون الفهم، وثبات الحكم، وزوال الشك، وتحقيق الأمر، فذاك العلمُ.**

قال الراغب الأصفهاني في: «المفردات في غريب القرآن» (ص: ٥٣):

«اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدّراية وأخواتها، فاليقين: هو سكون الفهم وثبات الحكم» اهـ.

وقال ابن فارس في: «مقاييس اللغة» (٦/ ١٥٧):

«اليقين: زوال الشك» اهـ.

وقال ابن منظور في: «لسان العرب» (١٥/ ٣٢١):

«اليقين: العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر، واليقين نقيض الشكّ، والعلم نقيض الجهل، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١]، أضاف الحق إلي اليقين، وليس هو من إضافة الشيْء إلىٰ نفسه؛ لأنّ الحق هو غير اليقين، إنما هو خالصه وأصحّه، فجرىٰ مَجْرَىٰ إضافة البعض إلىٰ الكلّ» اهـ.

قلت: روىٰ البخاري في «صحيحه» (١١١) باب كتابة العلم عن الشعبيّ عن أبي جُحَيْفَةَ قال: قلت لعليّ بن أبي طالب: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ قال عليّ: «لا والذي فلق الحبّة، وبرأ النَّسَمَة، إلا فهمًا يعطيه اللَّه رجلًا في القرآن»، وفي رواية: «لا، إلّا كتابُ اللَّه، أوْ فَهْمٌ أُعْطِيه رجلٌ مُسْلم»، فذلك فضلُ اللَّه يؤتيه من يشاء واللَّه ذو الفضل العظيم، المنّان الكريم، العليم الخبير الحكيم اللطيف الودود الحليم.

قال الحافظ الفقيه ابن حجر العسقلاني في: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» (١/ ٢٥٧):

«"إلا كتابُ اللَّه، أوْ فهم أُعطيه رجل مسلم" والظاهر أن الاستثناء هنا منقطع، والمراد بذكر الفهم إثبات إمكان الزيادة علىٰ ما في الكتاب وقد رواه المصنف - يعني: البخاري- في الدّيات بلفظ: "ما عندنا إلا ما في القرآن، إلّا فهمًا يُعطى الرجل في الكتاب"، فالاستثناء الأول مفرّغ والثاني منقطع، فمعناه: لكن إن أعطىٰ اللَّه رجلًا فهمًا في كتابه فهو يقدر علىٰ الاستنباط عنده الزيادة بذلك الاعتبار، فإنه لم يرد بالفهم شيئًا مكتوبًا» اهـ.

- **بيان الفهم على ضوء معنى الغِلّ والعلم:**

قال الراغب في: «المُفردات»(ص: ٣٨٦):

«الفهم هيئة للإنسان بها يتحقّق معاني ما يُحْسِنُ» اهـ.

وقال ابن فارس في: «مقاييس اللغة» (٤/ ٤٥٧):

«الفاء والهاء والميم علم الشيء، كذا يقول أهل اللغة» اهـ.

قلت: فكان أصل حروف كلمة الفهم هو العلم، وقد مرَّ آنفًا أن العلم هو إدراك الشيْء بحقيقه، فهناك نسجٌ وتداخل بين العلم والإدراك والفهم والإحاطة.

وقال ابن منظور في: «لسان العرب» (١١/ ٢٣٥):

«الفهم معرفتك الشيْء بالقلب، وفهمت الشيْء: عقلته وعرفته، وفهمه فهمًا: علمه، ورجل فَهِمٌ: سريع الفهم، وتفهّم الكلام فهمه شيئًا بعد شيْء» اهـ.

وقال في: (٥/ ٢٤٩) مادة (درك):

«وأدرك علمي: أي أحاط علمي بها أنها كذلك» اهـ.

قلت: فيكون معنىٰ العلم الصحيح النافع هو: الجمع بين صحة الفهم، وقوة الإدراك، والإلمام والإحاطة بالمراد والمقصود من كل مسألة من مسائل الشّريعة والدّين، ومن ثم تعيّن ضبط المعلومة بحقيقة اليقين، الذي مرّ تعريفه وهو: سُكونُ الفهم وثباتُ الحكم، وزوال الشك وصفاء القلب، وعليه، فهذه جملة من الفوائد والمعاني الجليلة الفائقة المراد والمقصود تُمكّن من الوصول إلىٰ المطلوب العلميّ، الموصوف بخلوص الشأن للَّه وحده، والسعي إلىٰ مرضاته بطهارة القلب من الدّغل والحقد والحسد والغلّ، ولما مرّ من معاني الغلّ؛ أنه الحقد والحسد والشحناء، والخيانة التي تُزيل المرء عن الحق، وتدخله في قَلْبِ الحق باطلًا والباطل حقًّا بعد بزوغ الحُجّة، وقوة البرهان، ووضوح البيان، فقد ظهر جليًّا تأثير فساد القلوب في المنظومة العلمية، روىٰ ابن بطة العكبري في: «الإبانة الكبرىٰ» (٧٧هـ) عن حذيفة بن اليمان وهو يوصي أمّة محمد فيقول: «إنّ للضلالة حق الضلالة أن تعرف ما كنت مُنكر، وتنكر ما كنت تعرف، وإياك والتلوّن في دين اللَّه؛ فإنّ دين اللَّه واحد».

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

قال ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٧):

«قال ابن عباس، والسُّدِّيّ، ومجاهد، وعكرمة، والضحّاك، وقتادة، ومُقاتل بن حيَّان: ﴿فُرۡقَانٗا﴾ نجاة، وفي رواية عنه: نصرًا.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾؛ أي: فيصلًا بين الحق والباطل، وهذا التفسير من ابن إسحاق أعمّ ممّا تقدم، وقد يستلزم ذلك كله؛ فإن من اتقىٰ اللَّه بفعل أوامره، وترك زواجره، وُفِّق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سَبَبَ نصره ونجاته من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه وهو مَحْوُها، وغفْرُها: هو سترها عن النّاس سببًا لنيل ثواب اللَّه الجزيل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]. » اهـ.

وقال القرطبيّ في: «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٨٣-٢٨٤) عند الآية:

«وكان اللَّه عالمًا بأنّهم يتقون أم لا يتقون؛ فذكر ذلك بلفظ الشرط: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾؛ لأنه خاطب العباد بما يخاطب بعضهم بعضًا، فإذا اتقىٰ العبد ربّه باتباع أوامره، واجتناب نواهيه؛ وترك الشبهات مخافة الوقوع في المُحرَّمات، وشحن قلبه بالنّية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفّظ من شوائب الشّرك الخفيّ والظاهر؛ بمراعاة غير اللَّه في الأعمال، والركون إلىٰ الدنيا بالعفّة عن المال، جعل اللَّه له بين الحق والباطل فرْقانًا، ورزقه فيما يريد من الخير إمْكانًا.

قال ابن وهب: سألت مالكًا عن قوله ﷻ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال مخرجًا، ثم قرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

قلت: وجمع القرطبيّ في: «جامعه» (١٨/ ١٢١-١٢٢) كلام أهل العلم في معنىٰ المخرج فقال:

«قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وعن ابن عباس: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾: ينجّيه من كل كرب في الدنيا والآخرة، وقيل: المخرج هو أن يُقنعه بما رزقه، قاله عليّ بن صالح، وقال الكلبيّ: ﴿وَمَن

يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾بالصبر عند المعصية ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من النّار إلىٰ الجنّة، وقال الحسن البصريّ: مخرجًا مما نهىٰ اللَّه عنه، وقال أبو العالية: مخرجًا من كلّ شدّة، وقال الربيع بن خُثيم: من كان شيء ضاق علىٰ الناس، وقال الحسين بن الفضل: ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ الثواب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾؛ أي: يُبارك له فيما آتاه، وقال سهل بن عبد اللَّه التُسْتريّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في اتّباع السّنة ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من عقوبة أهل البدع، ويرزقه من حيث لا يحتسب. وقال عمر بن عثمان الصّدّفِيّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فيقف عند حدوده ويجتنب معاصيه، يُخرجه من الحرام إلىٰ الحلال، ومن الضيق إلىٰ السعة ومن النار إلىٰ الجنة ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ من حيث لا يرجو. وقال ابن عيينة: هو البركة في الرّزق، وقال أبو سعيد الخدريّ: ومن يبرأ من حوله وقوّته بالرجوع إلىٰ اللَّه يجعل لهل مخرجًا ممّا كلّفه بالمعونة له.

وتأوّل عبد اللَّه بن مسعود ومسروق الآية علىٰ العموم» اهـ.

قلت: ومعنىٰ العموم هنا: دخول كل ما قيل في معنىٰ الآية ومتوافق فيها، وهذا هو الحقّ لعدم التعارض بين هذه الأقوال، فإذا تقررت عندك كل هذا المعاني والمضامين، وتدبّرت وعقلت وفقهت وأدركت وتبصّرت ووعيت هذه المقاصد، حدث عندك سكون الفهم، وثبات الحكم، وزوال الشكّ وإزاحة الشّبه والقلق والاضطراب، وَطَهُر قَلْبُكَ، وَصَفَىٰ فِكْرُكَ وذهْنُكَ، وتخلّصت نفسُك من غِلِّهَا وحِقْدِها وحَسَدِها وخِيَانَتِها ودَغَلِهَا، واسْتَقَرّ أمْرك علىٰ الجادّة، واستقامتْ لك كلُ الشؤون، وما ذلك علىٰ اللَّهِ بعزيز.

روىٰ البخاري في «صحيحه» (٧٠٦٣)، ومسلم (٢٦٧٢) قال ﷺ: «**إن بين يدي السَّاعة لأيَّامًا، ينزل فيها الجهل -وفي رواية- يُبثّ فيها الجهل، ويرفع فيها، ويكثر فيها الهرجُ، والهرج القتل**».

وإن الناظر المتأمل العاقل الحصيف، ليرىٰ ذلك رأي العين بيقين في زماننا هذا، مع سكون الفهم وثبات الحكم، وما يحدث بغزّة اليوم ليس علينا ببعيد،

ومن ثم، فقد توجّب علينا كدعاة إلىٰ اللَّه بإذن اللَّه علىٰ بصيرة وعلم وفهم، أن نسعىٰ سعيًا حثيثًا، في بث ونشر العلوم الشرعية، وتعليم الناس دينهم، فهذا الأمر فرض علىٰ كل من كان أهلًا لذلك، والقاعدة الكلية: «**كل ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب**» ومن أتمّ الواجبات: تطهير القلوب، وصفاء العقول، ومحاربة النفس الأمّارة بالسوء، وتكثيف الجهد والقوة والتعب والنّصب لإقامة هذا الدين، لا لشهرة، ولا لدنيا، ولا لمال، ولا لمنصب، ولا لغلّ يدفعك لرد الحق، وَهوَىٰ يؤزّك أزًّا للصد عن سبيل اللَّه، ومحاربة أهل السّنة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦]، فذاك الخلل العقدي، والغش الديني، والفساد القلبيّ قال تعالىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، فإنّ الفرقان والفيصل بين الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة وبقيّة الثنتين وسبعين فرقة هو: السّنة والبدعة، فهذا الفقه والفهم الذي به ينصلح الدين والدنيا، وليس أمرنا قائمًا علىٰ الزّعم، بل ذاك الهدم لعرىٰ الإسلام وشعائر الدين بالتمام، ولكن إجماع السلف الصالحين: الإيمان قول وعمل ونية واتّباع السنة، فكل فرقة من الثنتين والسبعين يزعمون أنهم الطائفة المتصورة!!! فكيف ذاك؟ فقد خاب مسعاهم ومسعاك؛ ف ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]، ولا حول ولا قوّة إلا باللَّه وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد للَّه ربّ العالمين.

وقَّعَهُ

الباحث الشرعيِّ الدكتور/ عيد أبو السّعود الكيَّال